ملائكة الرحمة

للدكتورة نعيمة الأيوبي

"المحاضرة التي ألقتها من محطة الإذاعة اللاسلكية الدكتورة نعيمة الأيوبي بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية" المحرر

سادتي ، سيداتي :

لا أتحدث اليكم الليلة عن الملائكة التي جاءت بسيرتها الكتب المقدسة، وإنما أحدثكم عن آدميات يعشن بيننا ، لهن نفوس سامية، وعواطف فياضة ، لا يعشن لأنفسهن فقط وإنما يشعرن رغم حياتهن السعيدة الرغدة ، بألم البؤساء وحرمان الفقراء ، فيعملن في هدوء وصمت ، على رفع البؤس ، وتخفيف الآلام . كل بحسب ما يتراءى لها .

من أولئك الملائكة ، بعض كريمات السيدات والآنسات ممن يكرسن صباح كل سبت وثلاثاء وخميس لمساعدة أسر المسلولين . فيجتمعن لتوزيع الأطعمة والملابس والفراش على تلك الأسر، ويعملن على نقلها من المساكن المظلمة القذرة الى مساكن أخرى مشمسة نظيفة. ويعملن على تشغيل العاطل منها، ومعالجة المريض، وتعليم الأمهات والفتيات أشغالا يدوية يكتسبن منها فتزيد من دخل الأسرة. ويتمين بأنفسهن بوضع القطرة في أعين الأمهات والاطفال، ويوزعن القطرة والقطارات عليهم . ويعطينهم نقودا ونصائح وارشادات، وقد قمن بهذه الأعمال سنين عدة ، لم يشعرن بملل ، أو خوف عدوى ، أو صعوبة تحصيل مال أو مشاق العمل. تتزوج الآنسة منهن ويظن أن حياتها الجديدة ستصرفها عن العمل، فما تكاد تستقر حتى تعود إلى جماعتها كما كانت من قبل باسمة عاملة واثقة من اتساع أعمال الجماعة في المستقبل .

ومن أولئك الملائكة سيدات أخريات يجتمعن صباح كل اثنين وخميس بمستشفى فؤاد الأول للولادة ومعهن عدة ماكينات للخياطة ، فيعددن بأنفسهن ملابس للأطفال الفقراء الذين يغادرون المستشفى مع أمهاتهم ؛ وأعرف آنسة كريمة تشتغل تسع ساعات في اليوم ولها مدة راحة لا تزيد عن يوم ونصف يوم في الأسبوع ، ورغم تعبها وحاجتها الى الراحة في هذه الفترة القصيرة فانها تكرس نصف اليوم لتعليم أمهات الأسر الفقيرة في حي فقير أعمال التطريز والحياكة وتقوم هي بشراء المواد الخام، ثم تقوم بدفع أجر العمل لأولئك الأمهات رغبة منها في زيادة دخل هذه الأسر الفقيرة ؛ ثم تقوم ببيع هذه المنتجات بثمن تكاليفها بغير ربح وتعيد الكرة بشراء خامات لتوزيعها وهكذا ، أراها كل أسبوع تحيط بها الأمهات ، لا يمنعها عن الذهاب إليهن مرض أو تعب أو اي طارئ مهما عظم .

وتذكرني هذه الآنسة الكريمة واهتمامها بالأحياء الفقيرة بسيدة تتجول بين الأسر الفقيرة لمساعدتها، وقد انطبعت في مخيلتها صورة أسرة منها تعيش في منزل مظلم مكون من حجرة واحدة لا أثاث فيها ، موحشة يسودها بؤس ضامت، وينام فيها أب وأم وسبعة أطفال ويعيشون جميعا بدخل قدره أربعون قرشا شهريا ! يدفعون منها أجر هذا المسكن وثمن طعامهم وملابسهم ولذا فإنهم كالأشباح أنصاف عراة، أنصاف جياع. ومنذ ذلك اليوم، وقد لمست صديقتي الفرق الشاسع بين كيفية صرفها هي لمبلغ أربعين قرشا وبين ما تؤديه الأربعون قرشا لهذه الأسرة، وصديقتي تحاسب نفسها حسابا عسيرا . فقد قاطعت ركوب التاكس وأصبحت تجد لذة في ركوب الترام واقتصاد فرق سعر المركبين لتحسين شأن تلك الأسر ، وقد عدلت ميزانيتها كلية فيما يتعلق بكمالياتها ونزهاتها . فلم تعد تشتري أدوات زينتها بأثمان مرتفعة وإنما بأقل من المتوسط. وعدلت من نزهاتها فحذفت بعضها وأبدلت بالبعض الآخر نزهات أقل نفقة.

لا تظني سيدتي وآنستي أن هذه الأعمال كبيرة عليك وأنها في غير متناول يدك ، هي كما ترين أعمال صغيرة بسيطة ولكن المثابرة عليها والاستمرار في عملها جعلها أعمالا عظيمة . وكل عمل مهما صغر يعظم بالتكرار . ومجموعة الاعمال الصغيرة تكون أعمالا عظيمة .

تصوري سيدتي وآنستي الأعمال الطائلة التي نستطيع أن نقوم بها نحن نساء مصر لو أن كل واحدة منا وطدت العزم على القيام بعمل ما مهما صغر ، ومن أولى منا نحن المصريات الشرقيات بالقيام بهذه الأعمال، وقد عرف الشرق منذ الأزل بأنه منبع المدنيات والحضارات والأديان ، الشرق الذي يلابس اسمه المعنوية الفنية والزهد والتقشف والتصوف، من أولى منا نحن المصريات ومصر منار الشرق ودينا الحنيف قد جعل الزكاة ركنا من أركان الاسلام وأية غاية لنا أو غرض من الحياة إن لم يكن لنا مثل هذه الغايات . وما الذي نكسبه من الحياة وهي ذلك الحلم السريع الذي تبتلعه مع الأسف أعمال زائلة .

فلتصمم كل واحدة منا على عمل صالح ، لا بقصد الشهرة ، ولا بقصد الثواب ، إني أطمع أن نسمو فوق هذا ، وأن نقوم معشر المصريات بالعمل الصالح لحبنا للعمل الصالح نفسه ، كما نحب الفضيلة للفضيلة نفسها . وليكون العمل الصالح كالفضيلة جزءا من كياننا إذا خدش أو فقد اختل له الكيان .

هيا سيدتي وآنستي ، ابدئي بعملك الصالح ، ولا أقول غدا وإنما الليلة. لنخصص في منازلنا ركنا نجمع فيه الأشياء التي نرغب في توزيعها ، ولنسمه ركن البركة . ضعي فيه ما يفيض عن حاجتك وحاجة أسرتك من ملابس وأحذية وأطباق وأكواب وملاعق وغيرها. ضعي فيه بعض قطع الصابون تصفيها إلى ميزانيتك وكذلك قليلا من الأرز والسكر . ضعي بعض أمشاط ثمن المشط منها ثلاثة مليمات ، وغيرها من أشياء توزعينها على من يحيط بك من فقراء وبؤساء، فالزبال مثلا ابت قطعا أنه رجل فقير يعول أسرة، وكذلك صبي المكوجي والبائع المتجول. بالله عليك سيدتي لا تناقشي البائع المتجول الحساب، ان المبالغ الصغيرة التي تتهاونين له فيها لا تنفعك كثيرا ، وهي بالنسبة له من ضروريات الحياة .

اعتنى بخادمتك . تغلفيها وقيها ووفرى لها فراشا وغطاء ، ولا تنسى أنها تقوم بأعمال كثيرة فهى محتاجة لغذاء كامل . وتثبتى من أنها خالية من الأمراض فإذا مرضت فعالجيها فنى ذلك خدمة لها ولأسرتك التى قد تنتقل اليها الأمراض . وكذلك فإن فى نظافتها وحسن هندامها فائدة لها ولك ؛ فما نفع تلميعك الأرض والأثاث وتجميلك الحوائط والأبواب والنوافذ وتنسيقك الأزهار ، وعنايتك بكل ما يعرض للسمع أو الفم او النظر ، إذا كنت ترين هذا المخلوق القذر يتنقل فى منزلك فيجرح النظر وينقل ما قد يكون به من حشرات إلى فراشك وأثاثك وأولادك .

ولا تنسى الخادم فإن سبها لا يقدم شيئا و إنما يحط من قيمتك كسيدة راقية ويفسد ناحية من تربية أولادك . و إنما علميها وافهميها خطأها أكثر من مرة ، ولا تنسى أنها جاهلة خرجت من بيئة منحطة وأن هذه الحياة جديدة عليها ، فهى لم تعرف الأثاث ولا كيفية العناية به ، ولا تعرف الأدوات وكيفية استعمالها وتنظيمها ، وهناك فرق شاسع بين عقلك ومنطقك وتصورك ، وعقلها ومنطقها وتصورها . ارفعى كفاءتها العملية وارفعى أجرها كلما تقدمت ، و إلا فكأنك تتقاضين أجرا منها عن تعليمك لها . وهـذا ما تأباه نفسك الكريمة . وبخلقك منها شخصا جديدا له كفاءة عملية ترفع من أجره تكونين قد قدمت خدمة اجتماعيـة جليلة و برفعك اجرها تمنعينها من السرقة . فسرقة الخدم نحن المسئولون عنها أحيانا . ولا تقتطعى من مرتبها شيئا بدل ما قد يتلف منها ، فإن صممت على الاقتطاع لردعها ، فلا تتوانى فى إضافة مكافأة لها تفوق ما اقتطعت كلما أحسنت عملا وامنحيها يوما للراحة فإنها ستعود إليك فى اليوم التالى أكثر نشاطا .

فإذا لم تقدمى من الأعمال الخيرية غير مساعدة هذه البائسة التى تبـذل قوتها وصحتها فى منزلك فإنك تكونين قد قدمت خيرا كبيرا وساعدت فئة بائسة وعملت على علاج مشكلة اجتماعية نشكو منها جميعا .

كل واحدة منا تستطيع بحسن تدبيرها واقتصادها أن تعـدل ميزانيتها بحيث تخصص جزءا منها للعمل الصـالح . فلنكن أقـل بذخا فى طعامنا وملابسنا ونزهتنا وزينتنا . إن أقل الكماليات لنا توفر ضرورة من حياة شخص آخر . و إذا كنت ترين مع ذلك أن هـذه أشياء لا يمكنك القيام بها ، فاحتفظى بجرائدك وجوارب القـديمة وابعثى بها إلى إحدى الجمعيات الخيرية ، فمن هذه الجرائد والجوارب القديمة و بقايا خيوط الصوف يمكن عمل أغطية وسجاجيد تعطى للفقراء والأطفال .

وإذا لم يمكنك فتقدمى جزءا من وقتك ونشاطك . إننى متأكدة أن الكثيرات من سيداتنا وآنساتنا متحمسات لتقديم خدمات ومساعدات ، وأن نفوسهن فياضة بالخير ، ولكن تعوزهن معرفة الوسيلة العملية لذلك . ولذا فانى أعلن استعدادى لتقديم كل مشورة فى هـذا الاتجاه . فلتتصل بى من تريد بوزارة الشؤون الاجتماعية صباح كل خميس . فننظم ما يمكن عمله تفصيليا .

وفقنا الله جميعا للعمل الصالح ، لنعمل ما فيه الخير لبلادنا المحبوبة ٩

نعيمه الأيوبى